



Aḥmed 'Isharkhān (tansīq).- *An-nukhab fi tārikh al-Maghrib. 'A'māl muhdāt 'ilā Muṣṭafā al-shābbī* (ad-Dār al-baydā': matba'at an-najāḥ al-jadīda, manshūrāt al-zaman, silsilat shurufāt 82, 2016), 2 vols, 383-537p.

أحمد إشرخان (تنسيق)..- النخب في تاريخ المغرب، أعمال مهداة إلى مصطفى الشابي، (الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، منشورات الزمن، سلسلة شرفات رقم 82، 2016)، في جزأين، 383-537 ص.

صدر عن منشورات الزمن سنة 2016، ضمن العدد

الثاني والثمانين من سلسلة شرفات، كتاب جماعي تحت عنوان: النخب في تاريخ المغرب في تسعمائة وعشرة صفحة؛ وهو في الأصل حصيلة أعمال اللقاء العلمي الذي احتضنته كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط في ماي 2013، تكريماً للأستاذ العميد مصطفى الشابي. وقُسم الكتاب إلى جزأين، خصص الأول لمعالجة موضوع النخب المغربية خلال العصرين الوسيط والحديث، وأُفرد الثاني لمعالجة الموضوع نفسه خلال الفترة المعاصرة.

ويُسْتَهَلُّ الكتاب بتقديم حدد فيه منسق العمل الأستاذ أحمد إشرخان أسباب اختيار موضوع النخب في تاريخ المغرب، ومن أبرزها قلة ما أنجز في "تاريخ هذه الفئة النشيطة النافذة الكلمة في المجتمع، سياسياً واقتصادياً واجتماعياً وثقافياً"، كما يذكر منذ البداية بالصعوبات المنهجية المرتبطة باستعمال مصطلح النخبة (élite) في تاريخ المغرب، وهو ما حرص الكثير من المشاركين في أعمال هذا المجموع على التنبيه إليه، والتأكيد على الإشكال الذي يطرحه باعتباره مفهوماً عاماً وشمولياً لا يحظى بتوافق منهجي شامل؛ فبالإضافة إلى تعارضه مع الدال والمدلول أثناء ترجمته إلى اللغة العربية، فقد يتعارض في بعض الأحيان مع مصطلحات مماثلة ألفها المغاربة من قبيل "الخاصة"، و"أهل الحل والعقد".

يأخذنا الكتاب لتتبع بعض من تاريخ هذه النخب، من خلال البحث في أصولها وعناصر تشكيلها، ومكوناتها، وأدوارها، وعلاقتها بالسلطة عبر تاريخ المغرب، إلى جانب جرد بعض مواقفها من الحداثة وتحديث أجهزة الدولة ومؤسساتها السياسية والإدارية، ودورها في الإصلاحات التي أقدم عليها المخزن المغربي في بعض الفترات من تاريخه. وحرص الباحثون في هذا العمل على تقديم نماذج كثيرة لأسماء فاعلة ضمن هذه النخب، سواء من القضاة والوزراء والأشياخ والقواد وقادة الجيش وغيرهم من المنتسبين إلى الخطط والمناصب الإدارية

والعسكرية، أو من التجار، أو من البيوتات والأسر الوجيعة، سواء في البادية أو المدينة. وقاربت الإسهامات المتضمنة في الجزء الأول من هذا العمل موضوع النخب في مغرب العصر الوسيط والحديث، وذلك وفق مقارنة سوسيو تاريخية وعلى امتداد عصر الدول والأسر التي تعاقبت على حكم المغرب، كما تم اعتماد التصنيف التقريبي الأكثر تداولاً لمفهوم النخب، والمتعلق بالتصنيف القطاعي المميز بين نخبة سياسية وأخرى عسكرية وأخرى اقتصادية وأخرى علمية وغيرها.

حاول الباحثون في هذا الجزء رصد موضوع النخب وتتبعه من مختلف جوانبه؛ فخلال الفترة المرينية تم التركيز على النخبة القبلية والسياسية اعتباراً لدورها المحوري في فترة السلاطين الأقوياء إلى حدود نهاية حكم أبي عنان، حيث دخل المغرب بعده مخاضاً عسيراً لعبت فيه هذه الأخيرة دوراً كبيراً في تراجع هيبة الدولة وانحطاط الحكم المركزي، وقد فسر الباحثون كيفية تحول هذه النخبة من راعية للدولة المرينية في فترة السلاطين الكبار إلى نخبة حاكمة ومستبدة بالقرار. ومن النماذج التي تم استحضارها في الصدد؛ الشيخ أبي ثابت عامر الهنتاتي الذي تحول من خديم للدولة المرينية إلى متمرد عليها بإقليم واسع من أقاليم البلاد، والوزير عمر الفاسي الذي واجهه أشياخ بني مرين المعارضون انطلاقاً من معقله بفاس.

وفي ذات الموضوع، رصد أحد الباحثين موضوعاً آخر لا يقل أهمية، ويتعلق الأمر بأصول النخبة العسكرية وأدوارها خلال العصر المريني، حيث اعتبر أن انبثاق الدولة المغربية خلال العصر الوسيط عموماً، والمريني تحديداً، من بيئة قبلية تحضر الحرب في أسلوب اشتغالها من أجل إثبات وجودها المادي والمعنوي، وحضور هذه الظاهرة بشكل قوي في مسار الدولة المرينية، أسلوباً للوصول إلى الملك وطريقة للحفاظ عليه، كلها عناصر أسهمت في وسم هذه الدولة بالطابع العسكري، مما أفضى إلى تشكيل نخبة عسكرية بأدوار فاعلة وحضور قوي، حيث تصدرت نشأتها، واستولت على نصيب مهم من ثروتها المادية، وعلى جزء كبير من قراراتها السياسية في أوج قوتها، ثم برزت أكثر حين تعرضت لعلامات الهرم والتلاشي، وتحولت من شريكة للسلطان في القرار إلى مستبدة به.

ويرى باحثون آخرون أن الثروة لم تكن في كثير من الحالات السبيل الأوحده نحو تشكيل نخبة هذا العصر، بقدر ما كان الجاه العنصر الأساس المفسر لإغناء المخزن لنخبه وخدامه من أصحاب القلم وأهل السيف والمقرنين، فضلاً عن تجار السلطان؛ وذلك بغض الطرف عن تجاوزاتهم في استغلال المناصب الحيوية في أجهزة الدولة، أو عن طريق الامتيازات التي خصهم بها، والهبات التي كانت توزع عليهم كل سنة، إلى جانب الأجور الشهرية والسنوية الضخمة، والاعفاءات الضريبية، وظهائر التوقير والاحترام التي نالها هؤلاء، مما مكنهم من

العيش في رخاء وترف تجلت بعض مظاهره في الإسراف في البنان، والسكنى في أحياء خاصة، وتمييز أنفسهم عبر مظاهر اجتماعية وسلوكية شتى، من قبيل اللباس والمركب والاحتفالات. والجدير بالذكر أن هؤلاء قد ظلوا يتمتعون بهذه الامتيازات والإنعامات طيلة فترة التمهيد والبناء، وكذا خلال مرحلة قوة الدولة.

واعتباراً لأهمية التجارة، خاصة الصحراوية منها، كمصدر مهم لتشكيل الثروة وتنمية الأموال في مغرب العصر الوسيط والحديث، فقد كان بعض التجار، وخاصة المقرين من السلطان، ضمن هذه النخب. وفي هذا الاتجاه، كشف أحد الباحثين عن دور التجارة في تشكل نخبة العصر السعدي، وقدم معطيات مهمة عن أدوار هذه الفئة، إلى جانب قضايا أخرى من قبيل التعامل مع الأجانب، وامتهان الصرف بالعملات الأجنبية، واستخدام المكاييل والموازين، وموقف الشرع من الصراع بين تجار فاس الأصليين ونظرائهم البلديين من أهل الذمة حول القيسارية الكبرى.

والملاحظ أن الامتيازات الممنوحة من قبل المخزن لفائدة هذه النخب كانت تُعكس كلما دعت الضرورة إلى ذلك؛ فالمخزن يلجأ إلى مصادرة ممتلكات هذه النخب وتتركها في حالة معارضتها للحكم أو عدم طاعتها للحاكم، أو خلال الفترة الأخيرة من عمر الدولة والتي يقل فيها المال ويحتاج السلطان إلى مورد مالي للوفاء بأجور الجيش وتسديد نفقات حياة الترف.

وسجلت الأوراق البحثية المتضمنة في هذا العمل وجود عوامل أخرى أسهمت في تشكل نخب هذه المرحلة، ومنها الشرف والانتساب إلى آل البيت الذي منح لبعض الأسر رصي دارمزيًا مهمًا مكنها من تصدر نخب هذا العصر؛ ومن الأمثلة الواردة في هذا الاتجاه أعيان الزاوية الشرقاوية الذين اشتغلوا في النسخ والتأليف، فأسهمت مؤلفاتهم في إشاعة ثقافتهم خارج أسوار الزاوية والمدينة، بالإضافة إلى نجاحهم في مبادرات التحكيم في النزاعات بين القبائل، دون إغفال أدوارهم في تجديد البيعة وتجهيز الحركات والاضطلاع بدور الشفاعة لدى الحاكم.

ولم تستثن المداخلات الحديث عن موقع المرأة ضمن النخب المغربية، غير أن الدراسة خلصت إلى أن هذا الانتفاء كانت تحصل عليه انطلاقاً من علاقات القرابة أو المصاهرة أو عبر تبعيتها للزوج الذي ينتمي هو الآخر لخاصة المجتمع؛ والملاحظ حسب ذات الدراسة أن موقع المرأة ضمن النخبة غالباً ما يرتبط بمصير زوجها وبمدى تأثيره بحالة النكوص التي قد يتعرض لها بعد حجز ممتلكاته من قبل الدولة.

خصص الجزء الثاني من الكتاب لتناول موضوع النخبة المغربية خلال القرن التاسع عشر وفترة الحماية. وتتبع بعض الباحثين مسار بعض الزعامات الدينية وأدوارها خلال القرن

التاسع عشر، وفي مقدمتها فئة عريضة من العلماء الذين واجهوا حملة نابوليون بونابارت على مصر باستنكارها. وتكمن أهمية هذه الدراسة في كشف النقاب عن بداية تشكل وعي لدى فئة عريضة من هذه النخبة، باعتبار أن الحملة الفرنسية ليست حدثا عابرا، كما اعتقده التيار المحافظ، يمكن مناقشته وفق ثنائية الكفر والإيمان، بل يتعين تجاوز ذلك إلى حد الجهاد بالمال والولد. وفي مقدمة هذا التيار الجديد، سليمان الحوات ومولاي مسلمة، اللذان أسهما فيما بعد في طرح مسألة الإصلاح وسؤال التحديث.

وتفيد المعطيات الواردة في الكتاب ببداية بروز وعي لدى بعض مكونات نخبة المغرب خلال القرن التاسع عشر الميلادي بضرورة التغيير والإصلاح لمواجهة مستجدات المرحلة، وفي مقدمتها الضغط الأجنبي على البلاد؛ ومن النماذج هذا الباب، شخصية ابن عزوز البرجي المراكشي الذي قدم لسلطان عصره النصيحة والإرشاد لإصلاح عطب الجيش المغربي بعد هزيمة إيسلي، وهو الدور الذي اضطلع به لاحقا الشيخ ماء العينين باعتباره واحدا من وجوه النخبة العاملة خلال هذه الفترة، إذ لعب أدوارا كبيرة في مواجهة الأطماع الفرنسية بالجنوب المغربي، وأهلته مكانته في المجتمع، كعالم ومتصوف، لحشد الأتباع ومواجهة المستعمر باعتماد آلية الجهاد، مثلما مكّنه رأساله الرمزي من النجاح في هذه المهمة الصعبة وخلال هذه الظرفية الحرجة.

وقد لعب الرحالة الأجانب دورا أساسيا في التعريف بنخب مغرب القرن التاسع عشر كما هو الحال بالنسبة للطبيب الإنجليزي آرثر ليرد الذي اقتفى أخبار شريف وزان الحاج عبد السلام، ومما ذكره امتلاكه لثروة طائلة، وتمتعه برصيد رمزي مكّنه من تبوأ مكانة مهمة في دوايب الدولة، كما رصد هؤلاء الرحالة حياة النخبة اليهودية الموسرة من خلال وصف ملابسها، كما هو الحال بالنسبة لأبراهام قرقوز الذي امتلك منزلا يشبه إلى حد ما منزل المحمي الإنجليزي بوبكر بن الحاج البشير الغنجاوي، والذي يعد أبرز وجوه النخبة المغربية خلال هذه الفترة. كما رصد آخرون من قبيل الرحالة هولت شخصيات مؤثرة في أحداث هذا القرن كالمُنهي والريسوني، وقُدور بن غبريط، وآل الجامعي، والباشا الكلاوي. والملاحظ أن المولى الحسن عمد إلى تتركب بعض النخب ممن تورطوا في إثارة الفوضى أو خلقوا شتانا داخليا أو ربما تسببوا في الانتفاضات الداخلية أو شاركوا فيها، من قبيل السراج وغريمه المدني بنيس اللذان تم احتواؤهما بعزل الأول وتتركب الثاني.

وخلال فترة الحماية، يتضح انطلاقا من الدراسات المتضمنة في هذا العمل، أن النخبة المغربية، بكل تشكيلاتها وانتماءاتها، قد شهدت تغيرا بنويا؛ فالإقامة العامة حلت محل الدولة في صناعة النخب الموالية لها، وهو ما يشهد على ميلاد نخبة جديدة لا تقاس بمؤشر

المال والجاه فقط؛ وإنما بموقفها من قضايا الوطن والاستعمار. وحسب أحد الباحثين، فإن سلطات الحماية جندت لهذه المهمة ضباطا في الاستعلامات العامة يترجمهم روبر مونطاني (Robert Montagne) الذي أشرف على إنجاز تقرير مفصل حول حالة "شباب المغرب" في ثلاثينيات القرن الماضي، وهو ذات التقرير الذي أملى على فرنسا ضرورة صناعتها لنخبة مدجّنة تخدم أهدافها السياسية داخل المغرب وخارجه، كما أرشد أصحاب هذا التقرير فرنسا بضرورة العمل بسرعة لسد الطريق أمام إمكانية استقطاب عناصر هذه النخبة الناشئة من قبل النخب الوطنية والثورية أو المحافظة.

وعلى سبيل المثال، استدل باحثون بنموذج نخب حاضرة سلا وعبد، وخلصوا إلى أن سلطات الحماية دأبت على تصنيف نخبة المغرب وفق معايير السياسة والدين والاقتصاد، ومن النماذج الواردة في هذا الصدد، الصحفي المغربي سعيد حجي الذي تبوأ مكانة مرموقة في الصحافة الوطنية بمواقفه التي عبر عنها في جريدة المغرب، وخاصة في ملحقاتها الثقافي؛ إذ يستشف من مقالاته تناوّلها لمواضيع ساخنة ما تزال تتمتع بمصداقيتها وموضوعيتها. وعلى غرار سعيد حجي، لمع نجم الصحفي صالح العبدى الذي نشر مقالات منددة بالسياسة البربرية، وأخرى بخصوص خبايا مؤتمر أنفا المنعقد سنة 1943، وهي مقالات واطب على نشرها في صحيفة لوكري ماروكان، (*Le Cri Marocain*).

أما فيما يخص النخبة اليهودية العاملة، فقد حاولت قدر المستطاع تفادي التصادم مع نظيرتها المسلمة من خلال عزوفها عن المشاركة في الفعل السياسي، وانكبابها على معالجة القضايا السياسية العابرة للحدود أكثر من القضايا ذات الطابع المحلي. وحسب الباحث الذي تناول هذا الموضوع، لقد حدث التقارب بشكل نسبي أثناء تقديم الوطنيين المغاربة لمطالب الشعب سنة 1934. ولوحظ خلافا لذلك وجود توافق في الرؤى بين النخبتين المسلمة واليهودية ضمن التوجه الشيوعي لمغرب الثلاثينيات على الرغم من غياب قاعدة جماهيرية مساندة لهذا النضال. وموازية مع ذلك، ظهرت نخبة يهودية ناضلت من أجل الاندماج في المجتمع الرأسمالي العلماني، والقطع مع الماضي (الجزية والملاح). وفي الوقت الذي واصل فيه الوطنيون المغاربة المسلمون نضالهم من أجل الاستقلال كشرط للخلاص، رأت عناصر النخبة اليهودية أن إنعام سلطات الحماية عليهم بوسائل لتدبير الشأن العام المغربي كفيّل بتحقيق التقدم، ولم تكن مواقف المغاربة اليهود طوباوية ولا ثورية، وإنما تثبت أصحابها بمنطق التوافق.

وخلاصة القول؛ فإن مجموع النخب في تاريخ المغرب يثير عدة قضايا ذات الأهمية البالغة تسمح بإضافته إلى قائمة البحوث المنجزة في هذا الصدد لتناوله الموضوع من زوايا كثيرة، وفق مقاربات علمية مختلفة. كما يعد التفاتة إنسانية لشخص سخر جهودا للجامعة المغربية على

مستوى البحث العلمي، والتدريس والتأطير والتدبير الإداري. إنه الأستاذ مصطفى الشابي أحد أعمدة الجامعة المغربية الذي أسهم بحماس وجدية في وقت كانت فيه البحوث المغربية التاريخية لم تتجاوز مرحلتها الجنينية. ويعتبر هذا الكتاب بحق مادة دسمة تفتح للباحث آفاقا مستقبلية لمقاربة موضوع النخب بمختلف مناهج العلوم الإنسانية نظرا لغنى المعلومات المتضمنة فيه، وتنوع مرجعياتها المعرفية.

ربيع رشدي
أستاذ باحث، أكادير